

مقدمة

أكثر أديبات مشروع إسلامية المعرفة من تأكيد البعدين: المعرفي والمنهجي في جهود الإصلاح والنهوض الحضاري الإسلامي. ويختص البعد المعرفي بالمحتوى النظري للفكر البشري، والتميز بين مستوياته، وهي: الحقائق، والمفاهيم، والمبادئ، والنظريات، ضمن رؤية كلية إسلامية لهذه المستويات. أما البعد المنهجي فيختص بالبعد العملي لهذا الفكر ضمن عناصره الثلاثة: طرق التفكير وأساليبه، وإجراءات البحث وخطواته، وحوافر السلوك ودوافعه. ومع أهمية البعد المعرفي وموضوعاته وقضاياها، فإنَّ منهجية التعامل مع هذه الموضوعات والقضايا تأخذ النصيب الأكبر من محاور اهتمام المشروع، وهي أربعة محاور، في كل محور منها قضيتان على الوجه الآتي:

1. رؤية العالم الإسلامية، (أو الرؤية الكونية، أو الرؤية الوجودية...) وتشتمل على قضيتين هما: النظام المعرفي الإسلامي، والمنهجية الإسلامية.
 2. منهجية التعامل مع الأصول: وتشتمل على قضيتين هما: منهجية التعامل مع القرآن الكريم، ومنهجية التعامل مع السنة النبوية الشريفة.
 3. منهجية التعامل مع التراث: وتشتمل على قضيتين هما: منهجية التعامل مع التراث الإسلامي، ومنهجية التعامل مع التراث الإنساني.
 4. منهجية التعامل مع الواقع: وتشتمل على قضيتين هما: منهجية التعامل مع الواقع كما هو في الدراسات الميدانية للطبائع والوقائع، ومنهجية التعامل مع الواقع كما يجب أن يكون، ونعني بذلك الدراسات المستقبلية والاستشرافيه.
- وتُظهر هذه المحاور والقضايا التي تشتمل عليها أنَّ موضوع المنهجية هو لحمة مشروع إسلامية المعرفة وسداه. وليس ثمة خلاف على أنَّ التفكير المنهجي ضرورة لنجاح أيِّ عمل، بوصفه يرسم طريق الوصول إلى الغاية المنشودة، وأنَّ الوعي بهذه الضرورة ليس أمراً مستحدثاً، بل كان مصاحباً للإنسان عبر تاريخ

وعيه، وأنَّ هذا الوعي لم يقتصر على دائرة حضارية دون أخرى، ولا مجال اهتمام أو تخصص معين دون غيره. ومع ذلك فإنَّ كثيراً من الناس يفشلون في تحقيق أهدافهم القريبة أو البعيدة؛ لأنَّهم لا يسلكون إليها منهج الوصول، ويصدق هذا على الفرد والجماعة والأمة.

ولا يخلو مصطلح المنهج/المنهجية، أو المنهاج/المنهاجية، من جاذبية وسحر، في بيان أصحاب البيان، سواءً منهم من كان منهم في مجال التدوُّق الأدبي، أو التنافس المذهبي "الإيديولوجي"، أو الوعظ الوجداني، أو التبشير الدعوي، أو الادعاء العلمي... فكل هؤلاء يتوسل بالمنهجية، ويدَّعي وصلاً بها، ويقارع بمنهجيته منهجيات الآخرين ممن يدَّعون المنهجية في التفكير، أو في القول، أو في العمل؛ أو ممن يُدَّعي عليهم فقدانها.

فعلى الصعيد الأكاديمي في دوائر البحث في الجامعات مثلاً، ولدئى العديد من الشخصيات التي ظهرت في نصف القرن الماضي، بوصفها من أصحاب المشروعات الفكرية المتميزة، نجد من يحاول تخليص منهجية الفكر العربي الإسلامي مما لحق بها من الأفكار المسبقة الخاطئة عبر التاريخ، وبعضهم يحاول أن يفسر بالمنهج الأصولي القائم على الاستقراء ازدهار الحضارة الإسلامية وتميزها. كما يحاول بعضهم أن يفسر سبب تدهور الحضارة الإسلامية بسبب المنهج الفقهي الذي تحكَّم في العقل العربي (الإسلامي)، ففقد هذا العقل قدرته العبقريَّة وتوقف عن الإبداع. وبعضهم يحاول إعادة عرض هذا العلم على أنَّه وضع قواعد ومعايير لتفسير النصوص الدينية، ومن ثمَّ فإنَّ أصول الفقه هو نظرية في التفسير، وهو بهذا الاعتبار نسق مقفل!

لكنَّ الملاحظ أنَّ مثل هذا التقويم يتناول الممارسة التاريخية لمنهجية الفكر الإسلامي، وما خلفته هذه الممارسة من تراث؛ أكثر مما يتناول المبادئ الثابرة في المصادر الأصلية لهذا الفكر: في القرآن الكريم والسنة النبوية، والمقاصد التي استهدفتها هذه المصادر، والآفاق الواسعة لعمل هذه المبادئ في حقول العلم وميادين الحياة.

ويمثل التكامل المعرفي، الإطار المرجعي للمنهجية الإسلامية، وهو تكامل منهجي شامل في مصادر المعرفة، وفي أدوات المعرفة، وهو أيضاً تكامل بين المصادر والأدوات. ويقوم التكامل المعرفي على أساس الفطرة والضرورة، فالتنوع ظاهرة فطرية أصيلة لا بد من القبول بها واستثمارها، والضرورة نابعة من الحاجة الملزمة إلى التعاون والتكامل: فالتنوع أساس في الفطرة الطبيعية للإنسان: والناس أعراق ولغات وقبائل؛ والتنوع أساس في التصور والاعتقاد والتدين، ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة؛ والتنوع أساس في ما يتقنه الناس من أعمال، وما يفضلون استعماله والاستمتاع به في الحياة.

أما ضرورة التكامل فإنها تتمثل في ضرورتين: داخلية وخارجية؛ ضرورة داخلية تنبع من الحاجة إلى روابط وعلاقات الحب والرحمة والثقة بين أبناء المجتمع الواحد، وعهود ومواثيق السلام والطمأنينة بين المجتمعات، وضرورة خارجية تنبع من الاعتماد المتبادل، والمشاركة في المنافع بين البشر لتوفير متطلبات الحياة.

وللمنهجية -أي منهجية- أساليب في العمل العقلي وأنماط في التفكير، وإجراءات عملية للبحث عن حلول للمشكلات، وعن أجابات للأسئلة، تقود إلى اكتساب المعرفة وبناء الفكر، ومن ثم يأتي السلوك العملي، لوضع الحلول موضع التنفيذ في الواقع العملي. فالتكامل بين التفكير والبحث والممارسة، مبدأ من مبادئ المنهجية بعامة، وقد عرفت المنهجية الإسلامية بخاصة هذا المبدأ وصاغت دلالاته في عناوين معبرة: التكامل بين الفكر والممارسة، بين العلم والعمل، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ و"اقتضاء العلم العمل"، والتكامل بين السعي في إعمار الحياة الدنيا، والتوجه بهذا السعي نحو ثواب الحياة الآخرة، وغير ذلك.

والكتاب الذي نقدم له "منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية"، يحاول أن يقتحم عقبة التأليف في هذا الموضوع، ليبنى برنامجاً للتمكين للوعي بعلم المنهجية، وللتدريب على التفكير والبحث في قضاياها، ولممارسة هذه المنهجية في التعامل الرشيد مع مسائل العلم والمعرفة في المجالات المعرفية المختلفة؛ فهماً وتوظيفاً وتطبيقاً. وقد اخترنا عنوان الكتاب على هذا الوجه

لتأكيد خاصية التكامل في المنهجية الإسلامية: التكامل في المصادر؛ والتكامل في الأدوات؛ والتكامل في المدارس؛ والتكامل بين الطبائع والوقائع المشهودة، والمثل والقيم المنشودة؛ والتكامل بين الوصف الكمي بالتقدير والحساب الدقيق لموضوع التفكير أو لمشكلة البحث، والوصف الكيفي الذي يعطي الدلالات والمعاني العميقة؛ وغير ذلك من وجود التكامل المعرفي والتعامل المنهجي.

وقد بدأ اهتمام المؤلف بموضوع هذا الكتاب مبكراً في عمله في إعداد المعلمين وتدريبهم، ثم في التدريس الجامعي، كما عرض بعض فصول هذا الكتاب في عدد من الدورات التدريبية في الأردن في تسعينيات القرن العشرين، ثم في بلدان أخرى، كما نظم جلسات متعددة مع عدد من العلماء والباحثين في قضايا المنهجية، والمتخصصين في التدريب على التفكير المنهجي. وشارك في جميع جلسات المناقشة التي نظمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي في القاهرة خلال السنوات الممتدة من 2005-2008م للتخطيط لتأليف كتاب "المنهجية الإسلامية" الذي أصدره المعهد بالتعاون مع دار السلام في القاهرة، في جزأين، وقد ظهرت بعض فقرات هذا الكتاب "منهجية التكامل المعرفي" في مادة الفصل الأول في كتاب "المنهجية الإسلامية" المذكور. كما أفاد المؤلف في إعداد كتابه هذا من مجمل الخبرة الغنية التي تكونت من مناقشات العلماء والمفكرين المشاركين في تلك الجلسات، ولا سيما في فصل "مصادر المنهجية وأدواتها"، وفصل "المدارس المنهجية". وقد أفاد كثيراً من الملحوظات المتعددة التي تلقاها من المشاركين في الدورات التدريبية المشار إليها. ولذلك فإن المؤلف يقدم وافر الشكر وعظيم التقدير إلى كل من أسهم في الجلسات والبرامج والنشاطات المذكورة.

وقد كانت أفكار هذا الكتاب موضوعات أساسية في العديد من الدورات التدريبية التي نظمها المؤلف تحت عناوين متعددة، كانت تستهدف أحياناً تطوير العمل المنهجي في مجال محدد، فجاءت بعناوين مثل: "مشكلات البحث العلمي في الدراسات الإسلامية"، و "البحث التربوي وتطبيقاته في العلوم الإسلامية في الجامعات". وكانت هذه الدورات أحياناً أخرى تستهدف تطوير التفكير والعمل المنهجي بصورة عامة، فجاءت بعناوين مثل: "مناهج البحث العلمي في المنظور

الإسلامي"، و"إصلاح مناهج الفكر الإسلامي وإسلامية المعرفة"، و"المنهجية الإسلامية"، و"منهجية التكامل المعرفي". ولذلك لا غرابة في أن تكون النسخ الأولية لبعض فصول هذا الكتاب في أيدي المشاركين في هذه الدورات. والجدير بالذكر أن الجمهور المستهدف في جميع هذه الدورات هو أعضاء هيئة التدريس في الجامعات وطلبة الدراسات العليا. وإن المتتبع لمجلة إسلامية المعرفة سوف يجد أن فقرات من بعض الفصول قد ظهرت في كلمات تحرير المجلة التي كان يكتبها المؤلف.

إن خبرة تنظيم الدورات التدريبية حول المنهجية الإسلامية، وتطبيقاتها في الحقول المعرفية المختلفة: التربية، وعلم النفس، والاقتصاد، والعلاقات الدولية... كانت تؤكد في كل مرة الحاجة لكتاب مناسب، يعرض في فصوله بصورة ميسرة مفاهيم المنهجية، ومبادئها، ومصادرها، وأدواتها، ومدارسها، بحيث تكون مهمة المدرب إعادة إنتاج مادة كل فصل لغرض التدريب، في صورة نشاطات وأمثلة ومواقف تدريبية. ولقد كانت هذه الحاجة هي هاجس المؤلف في تحرير مادة هذا الكتاب، ولذلك فقد تضمن الكتاب نماذج لهذه النشاطات والأمثلة والمواقف التدريبية، دون الاستطراد والإكثار منها في فصول الكتاب، تاركين فرص الإبداع والتطوير متاحة للمدرب، لاختيار ما تأتي به خبرته، أو يتطلبه مستوى المتدربين وطبيعة تخصصاتهم. ومع ذلك فقد أضفنا في ملاحق الكتاب ملحوظات حول متطلبات التدريب، ونماذج أخرى من خطط الجلسات التدريبية.

ولعل من المناسب أن نؤكد منذ البداية أن هذا الكتاب ليس بديلاً عن كتاب "المنهجية الإسلامية"⁽¹⁾ الذي كان نتيجة جهد جماعي متصل لغرض توفير كتاب مرجعي للدورات التي ينظمها المعهد في مجال المنهجية الإسلامية، وقد جاء في حوالي ألف ومائتي صفحة، وتضمن مسائل وموضوعات في الفكر المنهجي، وفلسفة المناهج، وردت بقدر من التفصيل، وعكست الخبرات الغنية لعدد غير قليل من العلماء والمفكرين. فهذا التفصيل ضروري لنوعية من القراء الذين يريدون

(1) باشا، أحمد فؤاد، وآخرون. المنهجية الإسلامية، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار السلام، 2010م.

التعمق في معالجة الأسس الفلسفية للفكر المنهجي والبحث المنهجي. في حين يأتي هذا الكتاب "منهجية التكامل المعرفي" لمقاصد أكثر صلة بالتعليم والتدريب. ومن المناسب أن ننوّه بأن المعهد العالمي للفكر الإسلامي قد نظم العديد من المؤتمرات التي كانت تستهدف تعميق الوعي بضرورة بناء المنهجية الإسلامية في التفكير وفي البحث، وإشاعة الثقافة المنهجية، ولا سيما عند أساتذة الجامعات وطلبة الدراسات العليا، وقد كان ذلك تنفيذاً لخطة العمل التي وضعها المعهد في الكتاب الذي يمثل فكرة المعهد، ورؤيته، ورسالته، وخطة عمله.⁽²⁾ ومن هذه المؤتمرات على وجه التحديد: المؤتمر الذي نظمه المعهد بالتعاون مع جامعة الخرطوم في السودان عام 1987م ونشرت أعماله في ثلاثة مجلدات،⁽³⁾ والمؤتمر الذي نظمه المعهد بالتعاون مع جامعة الأمير عبد القادر في الجزائر عام 1989م وصدرت أعماله في مجلد واحد⁽⁴⁾. إضافة إلى أن المعهد قد عهد إلى الدكتور محمد عمارة أن يؤلف كتاباً مرجعياً في ملامح المنهج الإسلامي، وقد أنجز الكتاب بالفعل ونشره المعهد بالتعاون مع جامعة الأزهر عام 1990م.⁽⁵⁾

كما أن هذا الكتاب ليس بديلاً عن المراجع التي يدرسها الطلبة في الجامعات في مواد دراسية حول "مناهج البحث العلمي" وتحمل عناوين متنوعة. فهذه الكتب تتناول في العادة الخطوات والعمليات الإجرائية في البحث، التي تتوجه مباشرة إلى المشكلة البحثية وما ينبثق عنها من أسئلة تحتاج إلى إجابات، أو فرضيات تحتاج إلى اختبار، في حين يعالج كتابنا هذا جوانب من الفكر المنهجي، ويُعِينُ في التحليل النقدي للكتب الفنية الأخرى ويرشّد استعمالها، لأن الكثير من هذه

- (2) المعهد العالمي للفكر الإسلامي. إسلامية المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل والإنجازات، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1986م.
- (3) زين العابدين، الطيب (محرر). المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية، أعمال المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي في جامعة الخرطوم، هيرندن فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1990م.
- (4) عارف، نصر محمد (محرر). قضايا المنهجية الإسلامية، أعمال مؤتمر قضايا المنهجية في جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة 1989م، هيرندن، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996م.
- (5) عمارة، محمد. ملامح المنهج الإسلامي، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وجامعة الأزهر، 1990م.

الكتب، ولا سيّما الكتب الجامعية المترجمة عن لغات أخرى، ربما تستند إلى أطر مرجعية فكرية يلزم تحليلها ونقدها، والكشف عن مدى توافقها أو تصادمها مع المرجعية الفكرية الإسلامية.

وإذا كان كتابنا هذا قد حاول أن ينحو منحى التدريب، فإنّ من المتوقع أن يبحث القارئ فيه عن "المهارات" التي هي بؤرة الاهتمام في البرامج التدريبية. ولكن الذي يجب أن لا ننساه أن المهارات لا تقتصر على مهارات التناول *manipulative skills*، أو المهارات العملية، بل إنّ "مهارات التفكير" أو مهارات "العمل الفكري" التي هي الموضوع الأساس في هذا الكتاب لا تقل شأنًا عن مهارات التناول والممارسة العملية، التي يتصف بها العمل الحرفي والفني.

ويتضمن الكتاب سبعة فصول. يبدأ الفصل الأول بعرض مفهوم التكامل المعرفي وعلاقته بوحدة المعرفة، ومبدأ التوحيد ورؤية العالم الإسلامية، وينوّه بوجود معوقات للتكامل المعرفي. ويعرض الفصل الثاني مفهوم المنهج والمنهجية، وبيان أهمية الوعي المنهجي، وعرض بعض المفاهيم ذات العلاقة المباشرة بمفهوم المنهجية. ويتناول الفصل الثالث موضوع الوعي المنهجي وبيان بعض مظاهر الخلل المنهجي التي تستدعي برامج علاجية. ويعالج الفصل الرابع تطور مفهوم المنهج والمنهجية في الفكر الإسلامي وفي الفكر الغربي. ويتناول الفصل الخامس مصادر المعرفة وأدواتها ومفهوم التكامل المعرفي. ويعرض الفصل السادس رؤية محددة لمبادئ المنهجية الإسلامية وقيّمها. ويقدم الفصل السابع والأخير مدخلًا إلى المدارس المنهجية في رؤية العالم الإسلامية. وينتهي الكتاب بملحوظات ختامية تقرر عددًا من المبادئ المهمة التي يأمل المؤلف أن يخرج قارئ الكتاب بها.

ويجدر التنويه بأن الكتاب -في صورته قبل الأخيرة- قد اطلع عليه عدد من العلماء المرموقين، الذين يعترّ المؤلف بصحبته لهم، والتحاور معهم على مدى سنوات، وأخصّ منهم بالذكر من أهدى إليّ ملحوظات قيّمة، واستدراكات مهمة، أخذ الكثير منها طريقه إلى الكتاب في صورته الحالية، وأخص بالذكر

منهم: الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد باشا، أستاذ الفيزياء وفلسفة العلوم، ونائب رئيس جامعة القاهرة سابقاً، والأستاذة الدكتورة يمنى الخولي رئيس قسم الفلسفة بجامعة القاهرة، والأستاذ الدكتور سيد عمر، أستاذ العلوم السياسية بجامعة حلوان، والأستاذ الدكتور محمد عمارة، المفكر الإسلامي والكاتب المعروف، فلهم وافر الشكر وعظيم التقدير، والدعاء إلى الله سبحانه أن يجزيهم خير الجزاء.

ويتوقع المؤلف أن يؤدي نشر هذا الكتاب إلى زيادة الاهتمام بموضوعه، كما يأمل أن تُختبر قيمة المادة الواردة فيه، والمقترحات المدونة في فصوله، ولعلّ القراء يتفضلون على المؤلف بإرسال ما يمكن أن يروه من ملحوظات، أو يقترحوه من تحسينات، لعلّ هذه الملحوظات والمقترحات تأخذ طريقها إلى طبقات قادمة إن شاء الله.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا لَا نَعْلَمُ، وَانْفَعْنَا بِمَا نَتَعَلَّمُ، وَزِدْنَا عِلْمًا.

والحمد لله رب العالمين.

الهدف من الكتاب

1. توضيح مفهوم التكامل المعرفي وعلاقته بوحدة المعرفة، وبالتوحيد وبرؤية العالم الإسلامية.
2. بيان مفاهيم المنهاج والمنهج والمنهجية والمفاهيم الفرعية المشتقة منها، والمفاهيم ذات العلاقة المعرفية المصاحبة لها: الوعي المنهجي، الخلل المنهجي، منهجية التفكير، منهجية البحث، منهجية السلوك، مصادر المنهجية، أدوات المنهجية، مبادئ المنهجية، القيم المنهجية، التكامل المعرفي، معادلة التكامل المعرفي.
3. تتبع تطور مفهوم المنهج والمنهاج والمنهجية في الفكر الإسلامي، وفي الفكر الغربي، وتعرّف المحطات المفصلية في هذا التطور، وتمثلاتها في الإنتاج العلمي والمعرفي، وفي الإنجاز الحضاري.
4. استيعاب أهمية البحث في قضايا المنهجية، والموقع المركزي للمنهجية في البحث العلمي في مجالات المعرفة البشرية المختلفة: علوم الشريعة، والعلوم الإنسانية والاجتماعية، والعلوم الطبيعية والتطبيقية.
5. تحديد مصادر المنهجية الإسلامية وأدواتها والخصائص المميزة لهذه المصادر والأدوات، والعلاقة التكاملية بين المصادر، وبين الأدوات، وبين المصادر والأدوات.
6. تحديد مبادئ المنهجية الإسلامية وعلاقتها بمنظومة القيم الحاكمة، وتمثلات هذه المبادئ والقيم في طبيعة المعرفة وخصائصها، وتمثلات التكامل المعرفي في منهجية التفكير ومنهجية البحث ومنهجية السلوك.
7. استخلاص معادلة التكامل المعرفي بوصفه إطاراً مرجعياً للمنهجية الإسلامية.
8. اكتساب الوعي بعلم المنهجية، وتمثلاتها في التفكير والبحث، وممارسة هذه المنهجية في التعامل الرشيد مع مسائل العلم المعرفة والحياة.
9. التمكّن من تنظيم دورات تدريبية في موضوع: منهجية التكامل المعرفي.

محاوّر مشروع الإصلاح الفكري الإسلامي إسلامية المعرفة:

رؤية العالم:

1. النظام المعرفي الإسلامي.
2. المنهجية الإسلامية.

منهجية التعامل مع الأصول:

1. منهجية التعامل مع القرآن الكريم.
2. ومنهجية التعامل مع السنة النبوية الشريفة.

منهجية التعامل مع التراث:

1. منهجية التعامل مع التراث الإسلامي.
2. ومنهجية التعامل مع التراث الإنساني.

منهجية التعامل مع الواقع:

1. منهجية التعامل مع الواقع كما هو.
2. وكما يجب أن يكون: دراسات مستقبلية واستشرافية.